فلسفة التاريخ

ومكانتها في فهم الانسانية

حنا خباز

إن درس الطبيعة ، على جلالة قدره ، وارتباطه بمصالح البشر الاقتصادية والاجتماعية ، هو درس ناقص اذا لم يكمله درس التاريخ . ذلك ان درس الطبيعة دون درس التاريخ ليس الاّ شذرات مبعثرة لا رابط بين اجزائها ولا غاية تنتهي اليها

والانسان بحسب افلاطون عالم مصغّر « Microcosm » او كون صغير ، فدرس الانسان يوضح معنى الكون ، وأما درس الكون فلا يوضح معنى الانسان . لذا كانت فلسفة التاريخ اكمل الدروس البشرية وأوفرها لذّة ، وأشدها تأثيراً في تنوير العقل ، وارتياحه الى الحقيقة الجميلة التي تهواها النفوس . وهي — اي الحقيقة — غاية النفس ، تجوع اليها جوع العين الى النور ، والاذن الى الصوت ، والقلب الى الحب . فمن لم يطلع على فلسفة التاريخ كانت ثقافته ناقصة مهما يحرز من العلوم والاختبارات

والانسان والطبيعة قرينان ؛ بل هو ابن الطبيعة ولبابها ، ورسم جوهرها ، وتاجها . فدرس الانسان درساً كاملاً ، هو كناية عن درس الكون بأجمعه . لذا كان قول الحكيم سقراط « إعرف نفسك » من جوامع الكلم . فالقضايا المختصة بالمجموع الانساني ، كالافعال والجهود والسياسات والعادات والشرائع والفنون والفلسفات ؛ هي أشياء حقيقية كالاجرام السموية والمظاهر الجوية والالفة الكيميية والاشعاع والجاذبية ونحو ذلك من الموضوعات الطبيعية

إن الميل لاستخراج اسمى الصور بواسطة ادناها هو هو في الانسان كما في الطبيعة . والنهج القويم في درس هذا الكون هو الابتداء بالانسان . والتدرج منه الى الطبيعة . لان الاعلى يشتمل على الادنى ويفسره . واذا صحّ ان تاريخ الانسان هو استمرار الخليقة لزم عن ذلك ان القوة المبدعة لا تزال عاملة ، وان تلك القوة ، وعلاقتها بصور الخليقة الراقية ، يمكن درسها في تاريخ الانسان بأوفر سهولة وأتم وضوح من درسها في ميدان الطبيعة . فالقوة المتصرفة في الطبيعة

هي العقل ، والعاملة في الانسان هي الارادة . من هنا تتكشف لنا الفكرة المركزية في فلسفة شوبنهور : الكون ارادة وتصوُّر : يعني ان القوة التي هي الكون بأجمعه تتجلى في كل الاوساط الآلية وغير الآلية بحلى واحد مختلف الاسم والصبغة ، ففي المواد الآلية وغير الآلية تبدو لنا « جاذبية ملاصقة » ، و « ألفة كيمية » . وفي الاحياء امتساك بالبقاء ، وفي الانسان ارادة وتصوُّر . فهي عروس واحدة تغير اثوابها في هذه الحالات الاربع

وتتجلى لنا هذه الفكرة في فلسفة سبنسر المركبة ، التي قضى اربعة وثلاثين عاماً في تأليفها . بدأ بها بالطبيعة والنواميس الحاكمة فيها . ثم تدرَّج منها الى الحياة — بيولوجيا — وأبان ان تلك النواميس هي نفسها عاملة في الاحياء عملها في الجوامد ، مع تنوُّع الصبغة . ثم ارتقى من ذلك الى علوم النفس — سيكولوجيا — فأوضح فعل الناموس ذاته هنا كما هو هنالك . وانتهى بالاجتماع — سسيولوجيا — فكان الناموس — او القوة — خيطاً ذهبيًّا يحوك شبكة متسلسلة ذات مراتب متفاوتة هي المادة والآلية والحياة والنفس والاجتماع

وفي فلسفة سبنسر نفسها قاعدة عامة هي : تطبيق الحي على الوسط الذي يعيش فيه . وذلك التطبيق او الملاءمة هو العامل في توليد الانواع . وبعبارة اوضح اقول ان اول حوائز الانسان لدرس الطبيعة كان جعل المحيط ملائماً لشؤون الاحياء . أعني ان الانسان ملزم طبعاً بدرس الطبيعة واستكناه نواميسها ليتمكن بذلك من تحصيل قوته الذي يأكله والمنزل الذي يسكنه . وكان على الانسان ان يدرس احوال النهر الذي يفيض في جوار مأواه ليتقي اضرار الفيضان ، وان يدرس طبيعة الشمس التي ترسل اشعتها على جسمه الآلي من علٍ ، وان يدرس القمر والنجوم ليهتدي في سراه . فلم تكن ثمة ندحة عن مجس الانسان في هذه الموضوعات . ماذا تعني ؟ : ومن اين هي ؟ : وما هي ماهيته هو كانسان ؟ : ولماذا كان في وسط هذا المشهد قصير الاجل ؟ : وماذا سبقه ؟ : وماذا سيليه ؟

فكانت الاجوبة والتفاسير التي جمعها الانسان هنا وهناك ، الكتلات التي ألفت النظم العلمية والفلسفية والدينية وتبين الانسان في ختام البحث المستفيض انه هو — الانسان — اهم موضوعات البحث العقلية واوسعها مجالاً . وانه وهو في الرحم جنيناً كان عالماً واسع النطاق ولا ذرَّة فيه دون تاريخ ، ولا جزيئة بلا وصف واسم . بعد ذلك ولد الانسان في اسرة ، في مدينة او قرية ، في دولة او جمهورية ، في حقبة من الدهر ، فتحتَّم عليه ان يدرس اسرته ووطنه وعصره ، وما ارتبط بذلك من موضوعات البحث كالاجناس البشرية واللغات المنوَّعة من فردية المقاطع ومتعدّدة المقاطع . قد بلغت امته مرتبة معينة في المشهد الانساني ، فما هي نسبتها الى اخواتها الامم الاخرى وما مقامها في المجموع ، اقتصاديًّا وعلميًّا وخلقيًّا وعسكريًّا واجتماعيًّا ، وما هو ماضي تلك الامة ، وكيف توصلت الى موقفها الحالي ، وماذا يتوقع منها في المستقبل ؟

وكما ان الفرد الواحد من الاحياء لا يموت لمجرد موت — او انحلال — الخلية الواحدة في نسيجه الخلوي، هكذا الجنس البشري لا يموت بموت الفرد الواحد من الناس كائنة ما كانت منزلته ومقامه

ان فلسفة التاريخ تصور لنا الوحدة والنظام فماذا تعني هذه الوحدة ؟ وما معنى هذا النظام ؟

الجواب عن الاول، ان تلك الوحدة تعني وحدة الاصل والعلة ، وحدة الطبيعة ، وحدة الروح او الذهن ؛ تتجلى تلك الوحدة في جميع الافراد ، وفي جميع العقول . فنرى العقول كافة تخضع لحكم الناموس الواحد في الطبيعة وفي الرياضة . وتبادل التفاهم مبني على تلك الوحدة ولولاها لعدم الاجتماع وانعدمت العلوم والاختراع . على ان تلك الوحدة لا تتناول الصفات الثانوية او العرضيات كاللون والاقليم . وهي تميل الى كونها وحدة في اقتسام المنافع ، وتمثل الالتزام والاشتراك في ناموس المتانة الاجتماعية او التماسك الاجتماعي . فالمرء ضعيف بذاته قوي بقومه ، وذلك الناموس — ناموس المتانة الاجتماعية — يجعل خير الفرد خير الجماعة . ولا اعرف اسماً اجدر بتلك الوحدة من كلمة « انسانية » . فهو اسم يشتمل على المعنى الجنسي والاخلاقي في الفرد وفي المجموع لانه يعرب عن الحقيقة الذاتية ، والفعل المباشر الذي به تتصف الافراد في مجموعها

يتبع ذلك ما ندعوه وحدة « الغاية » التي تجعل تقدم الانسان اجتماعياً عبارة عن تحقيق الأمن والترابط في الحالات الاجتماعية والصبغات التي ابتدعها الانسان في اوضاعه النفسية والاخلاقية والفنية والدينية ، تلك الصبغات التي بها هو « انسان » . واذا درسنا عادات الانسان ولغته ولغاته وديانانه وفنونه وآدابه ومسارحه ودرجات مدنيته بدا لنا درساً ظاهرياً بعيد الآفاق ، ورأينا ان تلك الاشياء تعرب عن تباينات شتى في شتى الامم وشتى العصور والاماكن ؛ مع ذلك هي تعرب عن وحدة عقلية ناشئة عن ارتباطها بالعقل الذي هو مصدرها . واذا تعقلناها ألفيناها تسعى الى وحدة في طبيعة العلة الفاعلة ، التي ابرزتها . وانها مطاوعة لشرائع كائن ، ومتأثرة بعوامل خارجية ، وبحكم ذلك الكائن وهذه العوامل جرى الانسان في كل عصر وفي كل مصر على نظم العائلة وتأليف العشيرة ، وعلى ضم العشائر بعضها الى بعض لتكوين الامة ، ومجموع الامم تؤلف الانسانية او النوع الانساني بجلى الوحدة في كل الدنيا

لم تنشأ الشرائع والنظم الاجتماعية في كل امة بحكم الصدفة والعرض ، كلا ، انما نشوء تلك النظم المتماثلة يسفر عن وحدة الاصل الفاعل في كل هذه الاوساط . ومع ان تنوعها يملي تباين احوالها ، فاتفاقها يبدي وحدة اصلها . كذلك الصناعة والفن ، وهي جهود اختيارية ، نشأت عن عمل الذهن متأثرة بالوسط الجغرافي . قس على ذلك التجارة والمال والاحوال الاقتصادية ، فانها كلها راجعة الى نواميس الاصل الواحد وتأثيراته

ومن هذا القبيل آداب اللغة . فهي واحدة في اصلها ، متنوعة الصبغة والاعراض الثانوية

تؤلف هنا اقاصيص خاصاً ، وهنالك اشعاراً عامية ، وهنالك خرافات وزواثيات وملحاً ونكاتٍ ومعلقات وخطباً رائعة تائهة ، على انها في كل تلك الصيغ تعبّر عن حال القوم الروحية والدينية اعمها يعرب عن حال الامة الداخلية فهي مقياس عيشهم وضابط مصيرهم . وكما ان الماء لا يرتفع عن مستوى مصدره كذلك الامة لا يمكنها ان ترتفع عن مستوى دياناتها والافراد الانسانيون كالخلايا الفسيولوجية متعاونة ، متبادلة المنافع ، متصرفة في تراث السلف ، مورثة جهودها للخلف ، فحياة الانسانية واحدة ، وخيراتها ملك مشترك للعموم . واذا كانت الوحدة عسيرة فالتشعب أعسر . لان العواصف ، وتنازع القوى الطبيعية ، لا شيء اذا هي قيست بثورة العواطف الانسانية ومنازعات الارادة وتضارب المصالح والاهواء . ومتى كانت الذات مركزاً فلا مندحة عن التصادم بين الافراد والجماعات . وان حروب الامم الهمجية عمل لطيف ، الاثر صغير ، بالقياس الى حروب الامم التي بلغت منزلة عالية من الثقافة والعلوم ، وبنت ارقى ذرى المدنية والاختراعات العصرية

في وسط هذه الفوضى نلمح آثار النظام . واذا لم يكن هنالك من ناموس ونظام في التاريخ فليس في حياة الانسان الاّ الصدفة العمياء . واذا انعدم الناموس في الانسان افيمكن تصوّر وجوده في الطبيعة ؟ واذا تصوّرنا تهوذ الناموس في طبقات الكون الدنيا دون العليا فأي كمال أو رسوخ يمكن ان يكون في الكون ؟ فان العقل المضطرب لا يمكن استقراره في طبيعة متكاملة النظام ، وافتراض نواميس طبيعية لا تتخلف في عقل غير مرتبط بنظام هو امر غير معقول كافتراض حروف هجائية معينة في آداب لغة غير منظمة ولا مفهومة

لذا كان من رغبات المفكرين ان ينشدوا الناموس والنظام في التاريخ كما تجلى لهم في الطبيعة واستجلاء ذلك الناموس هو فلسفة التاريخ . على ان بحثهم هنا هو ابطأ ، وأملهم بالفوز هنا أقل منه هناك . لانه لا يسع الانسان ان يتصوّر كوناً تسوده المشيئة الالهية والعقل فيه فوضى . وبدون ذلك الرابط تكون التواريخ حوادث مبعثرة من دون ناموس ولا مصير ولذا وجب الايمان بالناموس في التاريخ كما في الطبيعة حوله . وهذه الفكرة تؤدي بنا الى علوم الكلام فتجعل مجرى الكون خاضعاً لمشيئة الله . فالحرية تسود السماء والضرورة والقدر الاعمى الارض . هذه هي قاعدة لاهوت اوغسطينوس واكويناس وفلسفة سبينوزا وليبنتز

ولكن فكرة النظام ، وهي ضرورية في كلا الوسطين ، الطبيعة والتاريخ ، تراها مع ذلك جلية في هذه ، غامضة في ذاك . ففي الطبيعة قوّة ثابتة لا تتخلف ولا تكلّ . اما في التاريخ فالعلة الفاعلة هي ارادة متقلبة متعارضة . فالنواميس التي تسود التاريخ هي عقلية لا طبيعية ، اقناعية لا ارغامية . وهي في التاريخ نوعان ، جاذبة ودافعة ، وما يبدو لنا من التذبذب في حياة الدول ليس الاّ ايماناً تحوّل الى حقيقة في بعض الارادات والعقول . وذلك يوضح لنا ان النظام في التاريخ عقلي

لا مادّي . وعليه فحركة النظام في التاريخ هي تقدّم . وهي كناية عن جهد العقل لتحقيق ذاتيته ، وامتلاكه الحرية من صولة المادة ، وبالتالي تحرّره من القيود الطبيعية والسياسية والاجتماعية ، تلك القيود التي تؤخر ارتقاءه أو تعارضه

ان تصورنا النظام في التاريخ يقتضي تصوّر علته ، وعلته هي العقل او الذهن او الفكر ، تلك القوة المثبتة في الطبيعة ، واللابسة ثوب الشخصية في الانسان

الانسان مطية النظام ، فيعيش في النظام وبه يلوذ . وليست العقلية المذخورة في الطبيعة هي العامل الوحيد في الانسان . بل ان هنالك عاملاً آخر فيه هو الهيئة الاجتماعية . ولا يكون الانسان انساناً دون هيئة ونظام . وكلما تقادم عهد الجنس ازداد تقوذ السلف في الخلف . ولا يعيش الجنس بمعزل عن اصله ومصدره . فبأي منهج ، وبأي عامل ، بلغ تصور النظام حياة الانسان ، اولاً في المشاتر البدوية ، ثم في القوميات ، وأخيراً في صورة دولية — عامة — ؟ وكيف تغلب التقدم الجنسي على ما في صدر الانسان من النفسانية ؟

الجواب : — إن في تيّار الهيئة الاجتماعية ميلاً الى خلق النظام ، واستبدال الغيرية من النفسانية . لان انتظام الهيئة ، وحرية حركتها لتبلغ ارقى ذراها يستلزم الاقلال من قيود الاستئثار الفردي فتتمكن الهيئة من توزيع المنافع على الافراد . وجهود الهيئة انما هي محاولات لادراك افضل حالات النظام الضامن الانصاف في ذلك التوزيع . فالاجتماع خلق الغيرية . والغيرية آخر ملجأ يلوذ به الانسان لضمان كيانه وسعادته

وفي نفس الانسان غريزة حب البقاء . وحب البقاء يستلزم العدول عن العوامل الوحشية في النفس لانها تتحوّل مع ارتقاء الانسان الى عوامل انقراض وفناء . فالانسان لكي يبقى ، مضطرّ ان يعدل عن الحروب . لان الانسانية تحتمل الحروب وشن الغارات في اطوار طفولتها وصبوتها . اما في حال ارتقائها ورشادها وبلوغها ارقى ذرى العلوم والاختراع فيتعذر عليها احتمال الحروب . فترى امامها احد مسلكين لا ثالث لهما اما السلم او الفناء . والسيادة العظمى في الهيئة الراقية للمثل الاعلى والتصورات المتصلة بتلك النزعة العالية هي افضل العوامل في تدرّج الانسان في معارج الارتقاء

فالنزاهة ، واحترام المصلحة العامة والتضحية بالمصلحة الفردية في سبيل المصلحة العامة ، تلك الكمالات الروحية ، هي غاية مسير الطبيعة في الانسان ، وفيها تحقيق احلام المفكرين والشعراء من عهد افلاطون حتى الساعة . وانكار ذلك علينا هو خلل ادّى الى حصوله النقص الملابس الانسانية والعقلية الفردية في عهد طفولتها ، وستمرّ الدهور وعشرات القرون ، قبلما يتمكن الانسان من بلوغ المنزلة السامية التي تسعى الانسانية الى بلوغها . تلك الغاية السامية هي اثر الله في الطبيعة واثره تعالى في الانسان ، وفي الاجتماع